

الكتاب الرابع

الامبراطورية

١٤٦ ق. هـ - ١٩٢ م

جدول بالحوادث التاريخية

مرتبة حسب تواريخها

ق . م

الكلت الجيد ليون يفزون إنجلترا .	١٢٠٠
الكلت البريثونيون والبلجيون يفزون إنجلترا .	٩٠٩
بيثياس المرسل برنفاذ بحر الشمال .	٣٥٠
بداية الأسرة الأرسانية في بارثيا .	٢٤٨
صقلية تصبح ولاية رومانية .	١٠ - ٢٤١
الاستيلاء على سردنية وكورسكا .	٢٣٨
أرسيس الثاني ملك بارثيا .	١٩٠ - ٢١١
مرداتس الأول ملك بارثيا .	٣٨ - ١٧٠
الاستيلاء على مقثونية .	١٦٨
إليريكم .	١٦٨
آخية ، « أفريقية » ، لإيروس .	١٤٦
بطليموس السابع .	١٣٠ - ١٤٥
يوحنا هركانس ، ملك اليهود .	١٠٥ - ١٣٥
هوسيونوس .	٥١ - ١٣٥
أتلس الثالث يوصى لرومة ببرجم .	١٣٢
مرداتس الثاني ملك بارثيا .	٨٨ - ١٢٤
جالانا ربنسس .	١٢١
الحرب الجوجرثية .	٥ - ١١٢
فيلو البيزنطى ، العالم الطبيعى .	١١٠
الكسندر جانيوس ملك اليهود .	٧٨ - ١٠٤
قلقية ، بمقليا .	١٠٢
الحرب المترداتية الأولى .	٤ - ٨٨
مذبحة الرومان في الشرق الأدنى .	٨٨
الحرب المترداتية الثانية .	١ - ٨٣
الكسندر ، ملكة اليهود .	٦٩ - ٧٨
توماكس البيزنطى ، المصور .	٨٦
الحرب المترداتية الثالثة .	٦٣ - ٧٥
بيثينا .	٧٤
هورينى وكريت .	٦٧ - ٧٤

- ق. م .
٦٩ - ٦٣ أرستو بولس الثاني ملك اليهود .
٦٤ سوريا .
٦٣ بنس وبلاد اليهود تصبجان ولايتين رومانيتين .
٦٣ - ٤٠ هر كافس الثاني ، ملك اليهود .
٥٨ قبرص .
٥٨ - ٥٠ قيصر يفتح غاله .
٥٥ - ٥٤ قيصر في بريطانيا .
٥٠ هيرود الإسكندري ؛ ملجس الحدرائى .
٤٦ فونيديا .
٤٠ البارثيون يغزون سوريا .
٣٧ - ٤ هيرود الأكبر .
٣٠ مصر .
٢٥ جلانيا .
٢٥ - ٤ حملة إيليو س جالس على بلاد العرب السعيدة (اليمن) .
١٧ الأستيلاه على ألمانيا العليا والسفل
١٥ نوركم ، ريتيا .
١٤ جبال الألب البحرية .
١١ موسيا .
٧ وما بعدها ؛ استرابون الجغرافى .
٤ ؟ مولد المسيح .
٤٤ ق. م - ٦ م : أكلموس ملك اليهود ، هيرود انجيليس ، تترارك الجليل .
١٧ م كيدوكيا .
٤٠ موريتانيا .
٤٣ بريطانيا .
٤٧ ثورة كركتاكس .
٥٠ ديوسكريدس ، الصيدلى .
٥١ ٦٣ حرب پارثيا ورومة .
٥٥ - ٦٠ كبريولو يخضع أرمينية .
٦١ ثورة بودكما .
٦٤ جبال الألب الكتية .
٧٠ - ٨٠ فتح الرومان البلاد ويلز .
٧٧ - ٨٤ أجركولا حاكم بريطانيا .
٧٢ انقراض الأمره السلوقية .
٨٩ أفلوطنس في رومة ؛
٩٠ إبيكتس .

- ٩٥ ديوكريسمس .
١٠٠ أبلودورس الدمشقي ، المهندس المماري .
١٠٥ بلاد العرب الشمالية .
١٠٧ دأشيا .
١١٤ أرمينية ، آشور ، أرض الجزيرة .
١١٥ سورانس الإفسوسي ، الطبيب .
١١٧ هديان يتخل عن أرمينية وسورية .
١٢٠ مارنيس الصوري الجغرافي .
١٢٢ سور هديان في إنجلترا .
١٣٠ إيليا كيتو لينا تشاد في موضع أورشليم ، بشون الأزيميري العالم الرياضي .
أريان النقونيدي المؤرخ ، كلوديوس بطليموس الفلكي .
١٤٢ سور انطونينس بيوس في إنجلترا .
١٤٧ - ٩١ فلوجيسس الثالث ملك بارثيا .
١٥٠ لوشيان ، إيلوس أرسنديز .
١٦٠ جالينوس الطبيب ، پوسنياس الجغرافي .
١٩٠ سكستس إمبركس الفيلسوف .
٢٢٧ نهاية الأسرة الأرسانية .

باب الحادى والعشرون

إيطاليا

الفصل الأول

المسند

فلتقف قليلا عند هذا المجد المزعزع ونحاول أن ندرك أن الإمبراطورية كانت أعظم شأنًا من مدينة رومة ؛ ذلك أننا قد أطلنا الوقوف عند هذا المنظر الباهر الذى استحوذ على عقول المؤرخين كما خطب أبواب سكان الولايات ؛ لكن الواقع الذى لا مناص من الاعتراف به أن حيوية الدولة العظيمة لم يعاد مقرها فى عاصمتها الفاسدة المختصرة ؛ بل إن ما بقى لهذه الدولة من قوة وحيوية ، وكثيراً مما كان فيها من جمال ، ومعظم ما كانت تحتويه من نشاط عقلى ، إن هذا كله كان فى الولايات وفى إيطاليا ؛ ومن أجل هذا فلن نستطيع أن نكبر لأنفسنا فكرة صحيحة عن رومة ، وعمما قامت به من جلائل الأعمال فى الإدارة والسلم ، حتى نترك العاصمة نفسها ونطوف بالمدائن الألف التى كان يتكون منها العالم الرومانى (*).

قال بلنى الأكبر لما أن بدأ يصف إيطاليا : ترى كيف أبدأ هذا العمل ؟ إلا ما أكثر ما هنالك من بلدان ! - ومنذا الذى يستطيع أن يحصيها كلها ؟ وما أعظم شهرة كل بلد بمفرده ! ه لقد كان حول رومة وجنوبها إقليم

(*) فى وسع القارئ أن يتتبع هذا الطواف على الخرائط التى فى هذا الكتاب .

لا تبوم ، الذى كان فى بادئ الأمر أمها ، ثم صار عدوها ، ثم هربها ، ثم جنة من الضواحي والقصور يقيم فيها الرومان أصحاب المال والذوق السليم . وكان إلى جنوبي العاصمة وغربها نهر التيبر وطرق برية صالحة تربطها بالمرافئ المنافسين لها وهما پورتس Portus وأستيا على البحر الترمينى . وقد وصلت أستيا إلى أوج عزها فى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى ، فكانت شوارعها غاصة بالتجار وصائدى السمك ، ودور تمثيلها مزدحمة بهم . وكانت بيوتها ومساكنها ذات الشقق الكثيرة شبيهة كل الشبه بأمثالها فى رومة الحاضرة ؛ وقد تحدث عنها سائح من فلورنس فى القرن الخامس عشر حديث المعجب بثروتها وزينتها العظيمة . وتدل بعض الأعمدة الباقية منها إلى اليوم ، ويدل أخذ المذابح البديع التصميم والذى نقشت عليه أزهار جميلة ذقيقة ، على أن سكانها التجار أنفسهم كانوا يدركون معنى الجمال الحق .

وكان إلى جنوبي أستيا على شاطئ البحر مدينة أنتيوم Antium (أنزيو Onzio) حيث كان لأغنى الرومان ، ولكثير من الأباطرة ، وللمحبوبين من الآلهة قصور أو هياكل تمتد إلى شاطئ البحر الأبيض لتستقبل ما يسرى فيه من نسيم عليل . وقد وجدت فى خرائبها التى تمتد نحو ثلاثة أميال ، تماثيل ذات روعة وجمال ، منها تمثال المجالد البرغيزى وتمثال أبلو بلقدير . وبالقرب منهما أثر باق إلى اليوم كان يذكر « المواطنين العظام » الذين مضى عليهم الآن ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنهم كانوا من عهد قريب يستمتعون بروية أحد عشر مجالداً يموتون وهم يقاتلون عشرة دبة ضارية^(٢) . وكان إلى شمالها ومن وراء التلال الساحلية مدينة أكوينم مسقط رأس جوفنال وأرپينم Arpinum التى كانت تفخر بابنها ماريوس وشيشرون . وعلى بعد عشرين ميلاً من رومة كانت تقوم مدينة پرائنسى Praeneste القديمة (پلسترينا الحديثة Palestrina) ، وكانت بيوتها الجميلة مشيدة على شرفات مدرجة على سفح الجبل ، وجدائقها

تشتهر بوردها ، وقلة جبلها يتوجها هيكل ذائع الصيت للإلهة فورتونا پريميجينيا Fortuna Primigenia التي كانت تحيط النساء برعايتها وقت الحاض ، وتنال منهن المال نظير ما تنطق به من النبوءات . وكانت تسكيولم Tusculum التي تبعد عشرة أميال عن رومة غنية مثلها بالحدائق والقصور ، وفيها ولد كاتو الكبير ، واحتفظ شيشرون بكتابة « المجادلات النكبورية » (*) . وكانت أعظم ضواحي رومة شهرة ضاحية تيبور (ترفولي) التي مد إليها هدريان قصره الريني والتي قضت فيها زنوبيا ملكة تدمر سني أسرها .

وإلى شمال رومة تقع إتروريا التي بُعثت في عهد الزعامة بعثاً جديداً متواضعا ، وفيها بلدة پروزيا Perusia التي خرب أغسطس معظمها ووجدد بناء بعضها ، وجمال فنانوه فيها قوسا تسكانيا قديما ، وأنجبت أريتيوم Arretium ميسناس Maecenas وبعثت به إلى رومة ، وأخرجت خزفاً للعالم القديم ، وكانت مدينة پيسى Pisae في ذلك الوقت قد عمرت طويلا ، وتعزو هذه المدينة اسمها ومنشأها إلى جماعة من المستعمرين اليونان جاءوا من پيزا Pisa في الپلوبيونيز وكانوا يكسبون عيشهم فيها بنقل الخشب في نهر أرنس Arnus . وقامت على هذا النهر نفسه على مسافة من هذه المدينة في اتجاه منبعه مستعمرة رومانية ناشئة تدعى فلورنتيا Florentia ، يندر وجود مثلها بين المدن لأنها في أغلب الظن لم تقدر مستقبلا حتى قسده : وكان إلى الطرف الشمالي الغربي من إتروريا محاجر كرراز Carrara التي كان ينقل منها أجل رخام رومة إلى ثغر لونا Luna ثم تحمله السفن إلى العاصمة ، وكانت جنوى من زمن بعيد هي المرفأ الذي تصدر منه غلات شمال إيطاليا الغربي . ونسمع من زمن بعيد ، أي من عام ٢٠٩ ق . م ، أن القرطاجنيين قد دمروا تلك المدينة في حرب تجارية ضروس ، وأنها دمرت بعد

(*) ولا تزال فرسكاتي Frascati واردة تسكيولم ملجا أثرياء الإيطاليين . وفيها قصور الدبرتدين ، وترلونيا ، ومندرجوني وغيرها .

ذلك مراراً كثيرة ولكنها كانت في كل مرة تبعث بعثاً جديداً وتعود أكثر مما كانت رخاء وازدهاراً .

وعند قاعدة جبال الألب كانت أوغستا تورنوروم *Augusta Taurinorum* التي أنشأها الغاليون التورينيون *Tourini Gauls* ، والتي جعلها أغسطس مستعمرة رومانية ؛ وفي مقدور الإنسان أن يرى الآن أرصفتها ومجاريها القديمة تحت أرض شوارع تورين ، وقد بقي فيها من أيام أغسطس باب ضخم يذكرنا بأن المدينة كانت في يوم من الأيام حصناً يصد عن البلاد الغيرين عليها من الشمال . وهنا ينثنى نهر يدوا (الهو) الكسول الذي ينبع من جبال الألب الكتيية *Cottian* ويمر نحو الشرق مائتي ميل وخمسين ميلاً ، ويقسم الجزء الشمالي من إيطاليا قسمين كانا يعرفان في عهد الجمهورية بغالة ما قبل الهو وغالة ما وراء الهو . وكان وادي الهو أخصب أقاليم شبه الجزيرة كلها ، وأكثرها سكاناً ، وأعظمها رخاء .

وكان - عند سفح جبال الألب تلك البحيرات العظيمة - قربانس *Verbanus* (مجيوري *Maggiore*) ، ولاريوس *Larius* (كومو *Como*) ، وبناكس *Benacus* (جاردا *Garda*) ، التي كانت روعتها متعة العين والنفس لتلك الأجيال ولا تزال كذلك لنا نحن في هذه الأيام . وكان يبدأ من كوم ، مدينة بلني الأصغر طريق تجاري رئيسي يتجه جنوباً إلى مديولانم *Mediolanum* (ميلان) . وقد استقر الغاليون في هذه المدينة في القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم أضحت في أيام فرجيل من الحواضر الكبيرة والمراكز التعليمية الهامة ؛ وقبل أن يحل عام ٢٨٦ صارت عاصمة الإمبراطورية الغربية بدل رومة . وكانت فيرونا وقتئذ تسيطر على التجارة التي تعبر ممر برنر *Brenner* ، وقد بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تنشئ لها مدرجاً (جدد حديثاً) يتسع لخمسة وعشرين ألفاً من النظرة . وقامت على نهر البو اللتوى مدينة بلاستيا *Placentia* (بيامنزه

الحدیثة Piacenza ، وكرهونا Cremona ، ومنتوا Mantua وفرارا Ferrara
- وكانت في أول أمرها رباطات على الحدود أقيمت لصد الغالين .

وكان إقليم فينشيا يقع شمال نهر البو وشرق الأديج Adige . وقد اشتق
اسمه من الفينيتي Veneti ، المهاجرين الأولين من أليريا Illyria . ويصف لنا
هيرودوت كيف كان زعماء تلك القبائل يجمعون فتيات قراهم اللاتي
في سن الزواج . ويقدرّون لكل فتاة ثمناً يتناسب مع جمالها ،
ويزوجونها ممن يؤدي ذلك الثمن ، ثم يتخذون تلك المهور بائنة مغرية
للفتيات لمن كنَّ أقل من هؤلاء جمالا وفتنة^(٤) . ولم تكن مدينة البندقية
(Venice) قد نشأت بعد ، ولكن مدناً كبيرة قامت عند بولا Pola على شبه
جزيرة إستريا Istria ، وترجسقي Tergeste (تريسته Trieste) وأكوبيليا
Aquileia ، وبتشيوم Patavium (بدوا Padua) تتوج رأس البحر
الأدرياي . وقد بقي في بولا من أيام الرومان قوس نصر فخم ، وهيكل
ظريف ، ومدرج لا يفوقه في الروعة إلا الأصل الذي بنى على نمطه
وهو الكلوسيوم . وكان يمتد إلى جنوب نهر البو سلسلة من المذن تبدأ من
بلاستيا محترقة پارما ، وموتينا (مودينا) ، وبونونيا Bononia (بولونيا) ،
وفافنثيا Faventia (فينزي Faenze) وتنتهي عند أرمنيم .

وهنا عند رميني Rimini يقوم جسر من الجسور التي لا حصر لها والتي
أقامها المهندسون الرومان ، وهو أكثر الجسور احتفاظا بشكله الكامل القديم .
وكان الطريق الفلاميني يمتد على هذا الجسر إلى المدينة محترقاً قوساً يعادل
الخلق الروماني في صلابته وسيطرته . ويتفرع منه طريق فرعي يصل بتونيا
هرافنا بندقية الأيام الرومانية . وقد شيد هذا الطريق على قوائم في المستنقعات
التي لوئتها عدة أنهار تصب في البحر الأدرياي . ويصف استرابون مدينة رافنا
بأن « فيها شوارع واسعة مكونة من قناطر ومعدات^(٥) . وقد اتخذها أغسطس
مقرراً لأسطول الأدياي ، واتخذها كثير من الأباطرة مسكناً رسمياً لهم في القرن

الخامس . وقد كان تفوق شمال إيطاليا على سائر أجزائها في خصب التربة ، وفي جوه الصحن المنشط الباحث على العمل ، وفي موارده المعدنية ، وفي صناعاته المختلفة المتنوعة ، وتجارته النهرية القليلة النفقة ، . كان تفوقه في هذا كله مما سما به من الناحية الاقتصادية على وسط إيطاليا في القرن الأول الميلادي ومن ناحية الزعامة السياسية في القرن الثالث .

ولم ينشأ على الساحل الشرقي في جزئه الممتد جنوبي أرمنيم وشمال برنديزيوم إلا عدد قليل من المدن الهامة ، وذلك لأن هذا الساحل صخري كثير العواصف قليل المرافق . بيد أنه كان في أمبريا Umbria ، وبسنيم ، وسمنيوم ، وأبوليا ، بلدان صغرى كثيرة لا يستطيع الحكم على ثرائها وفنها إلا بدراسة أنقاض بيمبي . ومن هذه البلدان أسسيوم Assisium مسقط رأس پروبرتوس والقدايس فرانسيس ، ومنها سرسينا Sarsina التي ولد فيها بلوتس Plautus ، وامتيرنم Amiternum مسقط رأس سلت Sallust وسلمو Sulmo التي شهدت مولد أوغد ، وفنوزيا التي شهدت مولد هوراس . ولم تشتهر بنقتم بهزيمة هرس فحسب بل اشتهرت كذلك بقوس النصر العظيم الذي أقامه فيها تراجان وهديان . وقد قص هديان في نقوشه الواضحة على هذا العمود قصة أعماله المحيطة في الحرب والسلام . وكانت برنديزيوم القائمة على الساحل الجنوبي الشرقي تشرف على طرق الاتصال في دلماشيا وبلاد اليونان والشرق . وعند « عقب » إيطاليا كانت تقوم مدينة تارنم ، وكانت من قبل دولة - مدينة عزيزة الجانب ، ولكنها لم تكن في الوقت الذي نتحدث عنه إلا مشى آخذاً في الاضمحلال لكبار الموظفين والأشراف الرومان . وفي جنوبي إيطاليا استولى أصحاب الضياع الكبيرة على معظم الأراضي وحولوها إلى مراعى للماشية ، ففقدت المدن من تعتمد عليهم من المزارعين ، واضمحلت طبقاتها من التجار وأرباب الأعمال ، وأقل نيم العشائر اليونانية التي كانت تنفق أموالها بسخاء في الأيام السابقة ، وذلك بسبب تسرب

القبائل الممجة إليها وبسبب قيام الحرب البونية الثانية ، فاضم محل شأنها حتى لم تعد أكثر من بلدان صغيرة أخذت اللغة اللاتينية تحمل فيها ببطء محل اللغة اليونانية . وفي « إصبع » إيطاليا كانت مدينة رجيوم Rhegium (رجيو Reggio الحالية) ذات المرفأ الصالح . وقد أثرت هذه المدينة بفضل تجارتها مع صقلية وأفريقية . وعلى الشاطئ الغربي كانت تقوم قفيليا Velia ولعلها لم يكن من السهل عليها أن تذكر أيامها السالفة حين كان اسمها إيليا ، وحين كان يتردد في جنباتها أصدااء أشعار برمنيدز وزينون وأقوالها المتناقضة الخبيثة . وقد بدلت الجالية الرومانية التي استعمرت بوسيدونيا اسم هذه البلدة فجعلته بيستم Paestum ، ولا تزال تدهش زائرها بما فيها من هياكل فخمة . وكان أهلها اليونان في الوقت الذي نتحدث عنه قد أخذوا يلبون في الدم « البربرى » - الإيطالي في هذه المرة - الذي كان ينصب فيها من الريف القريب منها : ولم تبق الحضارة اليونانية حية في إيطاليا إلا في كپانيا .

وكانت كپانيا - المكونة من الجبال ومن الساحل المحيطين بناپلى - من الناحية الجغرافية جزءاً من سمنيوم . أما من الناحيتين الاقتصادية والثقافية فكانت عالماً مستقلاً بنفسه ، لأنها كانت من الوجهة الصناعية أكثر تقدماً من رومة ، وكانت قوية من الناحية المالية ، جمعت في رقعة صغيرة من الأرض حياة مليئة بالاضطرابات السياسية ، والمنافسات الأدبية ، والازدهار الفنى ، والألعاب العامة المثيرة . وكانت أرضها خصبة التربة تلتج أحسن الزيتون والكروم في إيطاليا ، وكان يصدر منها النبيذ السرنتى - Surrentine والفالرنى Falernian ، الذائعا الصيت ، ولعل فلرو Varro كان يفكر في كپانيا وهو يتحدث العالم بقوله : « يامن ضربتم في أرضين كثيرة ، هل رأيتم فيها أرضاً زرعت أحسن من أرض إيطاليا ؟ ... أليست إيطاليا مليئة بأشجار الفاكهة امتلاء يخيّل معه إلى من يراها أنها كلها بستان واحد عظيم ؟ » (٦) . وفي طرف كپانيا الجنوبي شبه

جزيرة صخرية وعرة المنحدر تمتد ناتبة في البحر من سالرنم *Salernum* إلى سرنتم *Surrentum* . وكانت القصور الصغيرة منبثة بين الكروم والحدائق المغروسة على التلال ، كما كانت تقوم بمحاذاة شاطئ البحر . وكانت سرنتم جميلة مثل سرنتمو *Sorrento* في هذه الأيام ، وقد لقبها بلني الأكبر بأنها « بهجة الطبيعة » التي حبتها بكل ما لديها من هبات (٧) ؛ ويبدو أنه لم يكده يتغير فيها شيء في خلال أثنى عام ، وأكبر الظن أن أهلها لا يزالون محتفظين بعاداتهم القديمة ، وأن آلهتهم في هذه الأيام هي آلهتهم في الأيام الخالية ؛ ولا تزال أجراف الصخور تحصر البحر حصاراً لا آخر له :

وكان في مواجهة هذا اللسان البارز في البحر جزيرة كبريا *Capraea* (كاپري *Capri*) تلاحظها الأمواج من جميع الجهات . وكان بركان فيزوف المطل على الشاطئ الجنوبي للخليج يرسل دخانه في السماء ، بينما كانت بيمبي وهركيولانيم ترقدان تحت طبقات اللحم . ثم تلى هاتين المدينتين نيوبوليس *Neopolis* « المدينة الجديدة » أكبر بلاد إيطاليا اصطبغاً بالصبغة اليونانية في عهد تراجان . وفي وسعنا أن نتبين من كسل نابلي في هذه الأيام مدى انهماكها القديم في الحب واللهو والفن . لقد كان أهلها إيطاليين ، ولكن ثقافتهم ، وعاداتهم ، وألعابهم كانت كلها يونانية . وكان فيها هياكل ، وقصور ، وملاه جميلة ؛ وكانت تقام فيها مرة في كل خمس سنين مباريات في الموسيقى والشعر نال استاتيوس في واحدة منها جائزة . وفي الطرف الغربي من الخليج كان ثغر بتيولي *Puteoli* (پزيولي *Puzzuoli* الحديثة) التي اشتق اسمها من رائحة بركها الكبريتية (٨) . وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل تجارة رومة وبفضل مصنوعاتها الحديدية ، وخزفها ، وزجاجها . وكان فيها مدرج تدل ممراته التي نحتت الأرض والباقية إلى هذا اليوم على الطريقة التي كان يصل بها المجالدون والوحوش إلى المختلد . وعلى الجانب الآخر من مرفأ بتيولي كانت تتلأأ قصور بايا *Baiac* التي

يزيد بهاها وجاذبيتها قيامها بين الجبال والبحر . هنا كان يلهو قيصر وكليجولا ونيرون ، وهنا كان الرومان المصابون بداء الرثية بأتون ليستحموا في مياه عيونها المعدنية . وكانت المدينة تجنى فوائد كثيرة من اشتهارها بالقمار وبالفساد الخلقى ، وهاهو ذا Varro يقول إن فتياتها كنَّ ملكاً مشاعاً ، وإن كثرين من فتياتها كانوا بنات^(٩) ، وكان كلوديوس يرى أن شيشرون قد جلله عار لا يحصى أيد الدهر لأنه سافر مرة إلى هذه البلدة^(١٠) . ويقول سنكا متسائلاً : « أتظن أن كاتو كانت تحذثه نفسه بأن يقيم في قصر مليء بأسباب اللهو والسرور ، يستطيع وهو فيه أن يحصى عدد من يمر به أمام عينه من النساء القاصرات اللاتي يملأن القوارب والسفن الكثيرة الأنواع المطلية بكافة الألوان ، والورود التي تتمايل حول البحيرة ؟ »^(١١) .

وعلى بعد بضعة أميال قليلة شمال بايا ، في فوهة بركان خامد ، كانت بحيرة أفيرنس Avernus تجث في الجحود دخاناً كبيرينياً بلغ من قوته أن وصفته الأساطير بقولها إنه ما من طائر يطير فوقه ويبقى حياً ، وكان بالقرب من الكهف الذي شقَّ فيه إنياس طريقه السهل إلى الجحيم كما جاء في ملحمة فرجيل .

وفي شمال البحيرة كانت مدينة كومي Cumae القديمة ، وكانت قد أخذت تختصر في ذلك الوقت بعد أن قامت إلى جانبها ابنتها مدينة نيوبوليس التي كانت أكثر منها جاذبية ، ولوجود مرفأين يجوارها أكثر أمناً من مرفئها وهما بتيولي واستيا ، ولتقدم الصناعة في كپوا Capua . وكانت كپوا تبعد عن شاطئ البحر في الداخل نحو خمسين ميلاً وتقوم في إقليم خصيب كان ينتج في بعض الأحيان أربع غلات في العام^(١٢) ، ولم يكن في إيطاليا كلها ما يضارع ما فيها من مصانع البرنز والحديد . وقد جازتها رومة على مساعدتها هنيئال جزاء أضرارها ثنتين من الزمان عجزت فيهما عن أن تفيق من كبوتها ، ووصفها شيشرون

في خلالها بأنها « مسكن من ماتوا سياسيا » (١٣). وظلت كذلك حتى أعادها
قيصر إلى سابق عهدها بأن جاء إليها بالآلاف من المستعمرين البلدد ،
وأضحت في أيام تراجان مدينة مزدهرة مرة أخرى .

لقد يبدو لنا أن هذه المدن الكبرى التي كانت قائمة في إيطاليا القديمة والتي
صردناها على القارئ مرداً سريعاً ليست أكثر من أسماء . ولشد ما نخطئ
إذ نظن أنها مجرد ألقاب على خريطة ، أو لا نحس أنها كانت مساكن
صاخبة لرجال مرهق الحس يجدهون في طلب الطعام والشراب ، والنساء
والذهب .

والآن فلنرفع الرماد عن إحدى المدائن الرومانية لنقف من آثارها التي
احتفظت بها بأعجب الوسائل عن مجرى الحياة في تلك الشوارع القديمة .

الفصل الثاني

بمبي

كانت بمبي إحدى البلدان الصغرى في إيطاليا ، وقلما يرد لها ذكر في الآداب اللاتينية إلا إذا ذكر حساء سمكها المتبل ، وكرنبا ، ودفنها تحت الرماد البركاني . وقد أنشأها الأسكانيون Oscans ، ولعلها تضارع رومة في قدم عهدها ، وسكنها مهاجرون من اليونان ، واستولى عليها سلا ، وجعلها مستعمرة رومانية ، ودمر بعضها زلزال في عام ٦٣ م . وكان بناؤها لا يزال يجدد في الوقت الذي دمرها بركان فيزوف مرة أخرى . فقد ثار هذا البركان في اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ٧٩ م : وقذف من قوته رماداً وصخوراً في الهواء وعلته ألسنة من اللهب . وانهمر فوقها مطر غزير فاستحالت المواد التي قذفها البركان سيلاً جارفاً من الطين والحجارة حط على بمبي وهركيولانيم ، فلم تمض إلا ست ساعات حتى غطاها بطبقة يبلغ سمكها ثمانى أقدام أو عشر . وظلت الأرض تزلزل والمنازل تتداعى طوال ذلك النهار والليله التي أعقبته . فدفن النظارة تحت أنقاض دور التمثيل^(١٤) ، واختنق مئات من الأهلين بالتراب والدخان ، وثارَت الأمواج فحالت بين من حاولوا النجاة بطريق البحر . وكان بلنى الأكبر وقتئذ يتولى قيادة الأسطول الغربى عند ميسينم Misenum القريبة من پتيولى . وتأثر قلبه باستغاثة أهل البلده وطلبهم النجدة ، كما تأثر برغبته في مشاهدة هذه الظاهرة عن كئب ، فركب سفينة صغيرة ، ونزل منها إلى البر على الشاطئ الجنوبي للملحليخ ، وأنجى عدداً من الأشخاص ؛ وبينما كانت تلك الجماعة تعدو خوفاً من البرد والدخان اللذين كانا يتقدمان نحوها ، خارت قوى العالم الشيخ ، فسقط في

الطريق وقضى نحيبه (*) (١٥). وفي صباح اليوم التالي انضمت زوجته وابن أخيه إلى الجماعة اليانسة التي كانت سائرة لإزاء الساحل تحاول الفرار من الموت ، وكانت ثورة البركان وقتئذ لا تزال مستمرة ، وقد غطت السماء من نابل إلى سرتم بالحجارة والرماد حتى استحال النهار ليلاً خالك السواد . واستولى الملح على الفارين الذين أفرقوا في هذا الظلام الدامس عن أزواجهم وأبنائهم ، فعلا صراخهم وعويلهم وزادوا الموقف هلعاً ورعباً . وأخذ بعضهم يستغيث بمختلف الآلهة لتنجيهم من هول الكارثة ، وبعضهم ينادى بأن الآلهة كلها قد هلكت ، وأن نهاية العالم التي ظالماً تنبأ بها الناس قد حلت (١٦) . ولما صفت السماء آخر الأمر في اليوم الثالث كانت الحمم البركانية وما اختلط بها من الطين قد غطت كل شيء في عمى إلا أعلى السقف ، وحتى كانت هركيولانيم قد اختفت عن آخرها من الوجود .

وأكبر الظن أن ألفين أو نحوهما من سكان عمى البالغ عددهم عشرين ألفاً قد قضوا نحبهم في هذه الكارثة ؛ وقد حفظ الرماد البركاني أشكال عدد من الموتى ؛ ذلك بأن الأمطار وأحجار الخفاف التي سقطت عليها غطتها بطبقة سميكة صلبت حين جفت ، ولما ملئ فراغ هذه القوالب العاجلة خرجت منه أشكال بشعة . وعاد قليلون ممن نجوا إلى أمتاض المدينة يبحثون فيها عن بعض ما فقدوه من النفائس ، ثم تركوا هذا الموضع فيما بعد فغطته الأتربة على مر الأيام . وفي عام ١٧٠٩ احتضر قائد نمساوي حفرة في موضع هركيولانيم ، ولكن الرواسب التي فوق المدينة والتي كان سمكها في بعض المواضع يبلغ ستين قدماً بلغت من السمك درجة جعلت أعمال الحفر تسير ببطء شديد وتتكلف نفقات باهظة . أما عمى فقد بدأ الكشف عنها في عام ١٧٤٩ ، وظل حتى الآن يجري في فترات متباعدة . وقد كشف الآن عن الجزء الأكبر من المدينة ، فظهر عدد كبير من

(*) انظر وصف بلني الأصغر لموت عمه في هذه الثورة البركانية في الجزء الأول من كتابنا « أشهر الرسائل العلمية » . (المترجم)

البيوت ، والأدوات ، والنقوش ، فاستطعنا أن نعرف عن عُمى القديمة من بعض النواحي أكثر مما نعرفه عن رومه القديمة .

وكان محور حياة المدينة هو السوق العامة ، شأنها في هذا شأن سائر المدن الإيطالية . وما من شك في أن هذه السوق كانت في الزمن القديم ملتقى الزراع ، وحاصلاتهم في « يوم السوق » ، وكانت تقام فيها الألعاب ، وتمثل فيها المسرحيات ، وقد أقام فيها الأهليون أضرحة لأهنتهم ، فسادوا ضربها لجوهر في أحد طرفيها وضربها لأبلو في الطرف الآخر ، وبالقرب من هذا الضريح الأخير أنشوا ضرباً لثينوس (زهرة) بميانا Pompeiana راعية المدينة وحاميتها . ولكن أهل المدينة لم يكونوا قوما متدينين ، فقد شغلهم الصناعة ، والسياسة ، والألعاب ، والصيد فلم تترك لهم وقتاً للعبادة ، وكانوا إذا عبدوا عظموا عضو التذكير واتخذوه أهم الرموز لطقوسهم الديونيشية^(١٧) . ولما أن زادت الشؤون الاقتصادية والحكومية في مقدارها ، وخطرها ، وعلت قيمتها ، قامت أبنية عظيمة حول السوق اتخذت مراكز للأعمال الإدارية ، وللمساومات ، والمفاوضات ، وتبادل السلع .

وفي وسعنا أن ندرك مما نعرفه عن المدن الإيطالية الحديثة كيف كانت الشوارع المجاورة للسوق تتجج بالبائعين الجائلين ، ويعلم فيها ضجيج البائعين والمشتريين ، وعجيج الصناعات بالنهار والمرح بالليل . وقد عثر المنقبون في خرائب الحوانيت على بعض النُقل ، والعيش ، والفاكهة ، المنضحة أو المتحجرة التي لم تجد من يشتريها . وفي الشوارع على مسافة من السوق كانت الحانات ، ومحال الميسر ، وبيوت الدعارة ، كل منها يحاول أن يجمع هذه كلها فيه .

ولولو لم يحرص أهل عُمى على أن ينقشوا عواطفهم على جدران المباني العامة لما استطعنا أن نتخيل ما كانت عليه حياتهم من حدة ومضاء . وقد نقلت ثلاثة آلاف من هذه النقوش ، وأكبر الظن أن آلافاً أخرى لم يتح لها البقاء ، وقد اكتفى ناقشونها في بعض الأحيان بذكر أسمائهم وفحشهم الجريء ، الذي لا يزال

الناس يحبون أن يفعلوه ؛ ودون بعضهم الأوامر التي كانوا يصدرونها إلى أعدائهم موافقاً أن يطيعها هؤلاء الأعداء كقول واحد من « من ساميوس Samius إلى كورنيليوس Cornelius : اشق نفسك » . ومن النقوش ما هو رسائل حب كثيراً ما تكون شعراً : فقد كتبت رميولا Romula تقول إنها « وقفت هنا مع استيفيلس Stephyllus » ؛ وكتب شاب متيم : « وداعاً يا فكتوريا ، وفي وسعك أيا كان مكانك أن تعطيني أحسن عطسة » (١٨) ، وليست الحوادث العامة أو القرابين الخاصة المنحوتة أو المرسومة على الجدران بأقل عدداً من هذه الرسائل ، فترى الملاك يعانون أيام عطلتهم ، والدين فقد لهم متاع يعلنون عن فقده ، ونقابات أرباب الحرف وغيرها من الجماعات تعلن عن تأييد المرشحين الذين يؤمل نجاحهم في حملات الانتخابات البلدية ؛ فهام أولاء « صائدو السمك يرشحون پوپيديوس روفس Popfdius Rufus ليكون إيديلا Aadile ، و « وقاطعو الأخشاب وبائعو الفحم النباتي يطلبون إليكم أن تنتخبوا مارسيليس » (١٩) ؛ وها هي ذى بعض النقوش الخشنة تعلن عن ألعاب المجالدة ، وبعضها الآخر يمدح شجاعة بعض مشهورى المجالدين مثل سلادس Celadus ؛ وها هي ذى « العذارى تمحسر » أو تهم بأحد الممثلين المحبوبين - « أى أكتيوس Actius ، يا حبيب الشعب عجل بالعودة ! » (٢٠) . لقد كانت پمبي تعيش لكي تتلذذ ، فقد كان فيها ثلاثة حمامات عامة ، وساحة للتدريب الرياضى ، ودار تمثيل صغيرة تتسع لألفين وخمسمائة من النظارة ، وأخرى كبيرة تتسع لخمسة آلاف ، ومدرج يستطيع عشرون ألفاً أن يستمنعوا فيه بالأم الموت يقاسمها غيرهم من الناس بدلا منهم . وها هو ذا نقش يقول : « سيفنتل في پمبي في الرابع والعشرين ، والخامس والعشرين ، والسادس والعشرين ، من نوفمبر ثلاثون زوجاً من المجالدين . . . قدمهم حاكما المدينة . وسيكون هناك صيد ؛ مرحباً

بك يا ميوس Maïus ، مرحى يا باريس ! وكان ميوس هذا أحدهما كرى
المدينة ، أما باريس فكان كبير المهالدين .

وتدل آثار داخل المنازل على أن الأهلين كانوا يجيئون حياة مفعمة
بالنعم تجملها الفنون المختلفة . فأما البيوت فتكاد تكون خالية من النوافذ
والندفسة فيها نادرة ، ولا تظهر الحمامات إلا في منازل الأغنياء ، وكان
لبعض الدور بركة في حديقة محاطة بالعمد . وكانت أرض الحجرات تصنع
من الأسمت أو الحجر ، أو من الفسيفساء أحياناً ، وقد نقش رجل صريح
من طلاب المال على أرض داره هذه العبارة : « مرحباً بالكسب » ، ونقش
آخر « الكسب لذة » (٢١) . ولم يعثر إلا على القليل من الأثاث ، فقد كان
كله تقريباً من الخشب ، ولهذا لم يبق منه شيء يذكر ، غير أن عدداً
قليلاً من النضد ، والأسرة ، والكراسى ، ومصابيح الرخام أو البرنز قد
نجت من التلف ، وفي وسع الإنسان أن يرى في متحفى پمى ونابلى مجموعة
متنوعة من الأدوات المنزلية ، من أقلام ، ومحابر ، وموازين ، وأدوات
المطبخ ، والزينة ، والآلات الموسيقية .

وتوحى القايا الفنية التى كشفت فى پمى أو بالقرب منها بأن الأشراف
الذين يسكنون فى القصور الصغيرة ذات الحدائق لم يكونوا هم وحدهم
الذين يستمتعون بالمميزات الثقافية للحياة ، بل كان يشاركهم فيها تجار
المدينة . فقد كشفت فى هركيلولانيم مكتبة خاضعة كانت تحتوى على
١٧٥٦ مجلداً أو ملفاً ، ولا داعى هنا لأن نعيد ما قلناه من قبل عن
كووس البسكوزيالى Boscoreale أو المناظر الرائعة والنساء الرشيقات المصورة
على جدران منازل پمى . ولقد كان فى كثير من المساكن تماثيل ذات روعة ،
وكان فى السوق العامة وحدها مائة وخمسون تمثالا . وقد عثر فى هيكل
چوپتر على رأس لهذا الإله قد يكون فدياس نفسه هو الذى سواه ،
فأنت ترى فيه القوة والعدالة مائلتين فى ثنايا الشعر الغزير والاحية الكنة .
وكان فى هيكل أهلو تمثال لديانا ثقب موخر رأسه حتى يستطيع كاهن

محتجياً أن يتحدث بالنبوءات . وقد عثر في أحد قصور هركيلانييم الصغيرة على طائفة من التماثيل والأدوات البرنزية كانت من الكثرة بحيث امتلأت بها حجرة ذائعة الصيت في متحف نابلي : وأكبر الظن أن روائع هذه المجموعة - عطارد المستريح ، ومارسس أو ديونيشس ، والساتير السكران وإله الحقول الراقص - كانت يونانية بأصلها أو بصنعها ؛ وهي تكشف عن خلق في الصنع ، وعن السرور غير المحتشم البادى في الجسم الصحيح السليم ، وهما الخاصتان المائلتان في الفن البركستيل . ومن هذه التماثيل تمثال نصفي من البرنز لأحد الدلايين في مدينة بيمبي ويدعي ل . كاسليوس أيوكتندس L. Caacilius Iuocundus الذي وجدت حساباته منقوشة على ١٥٤ لوحاً من الشمع عبر عليها في داره بمدينة بيمبي . ويظهر في هذا التمثال الرأس الأصلع والوجه الصارم غير المجرد من الحنو . في هذا التمثال تبرز الحشونة بالدكاء ، والحكمة بالثأليل الجلدية ، وهو من صنع مثال معاصر لصاحبه - ولعله مثال إيطالي - أظهر فيه شخصية صاحبه على حقيقتها وبأحسن ما تظهر الشخصيات . والحق أن الإنسان لتستريح نفسه لوجود هذه الشخصية الواقعية إلى جانب ما يحيط بها في متحف نابلي من تماثيل الآلهة والإلهات الحالية وجوهها من الغضون ، والتي تكاد تنطق بمعارفها الملساء الوديعة المستكنة لتخبرنا بأن أصحابها لم يعيشوا قط على ظهر الأرض .

الفصل الثالث

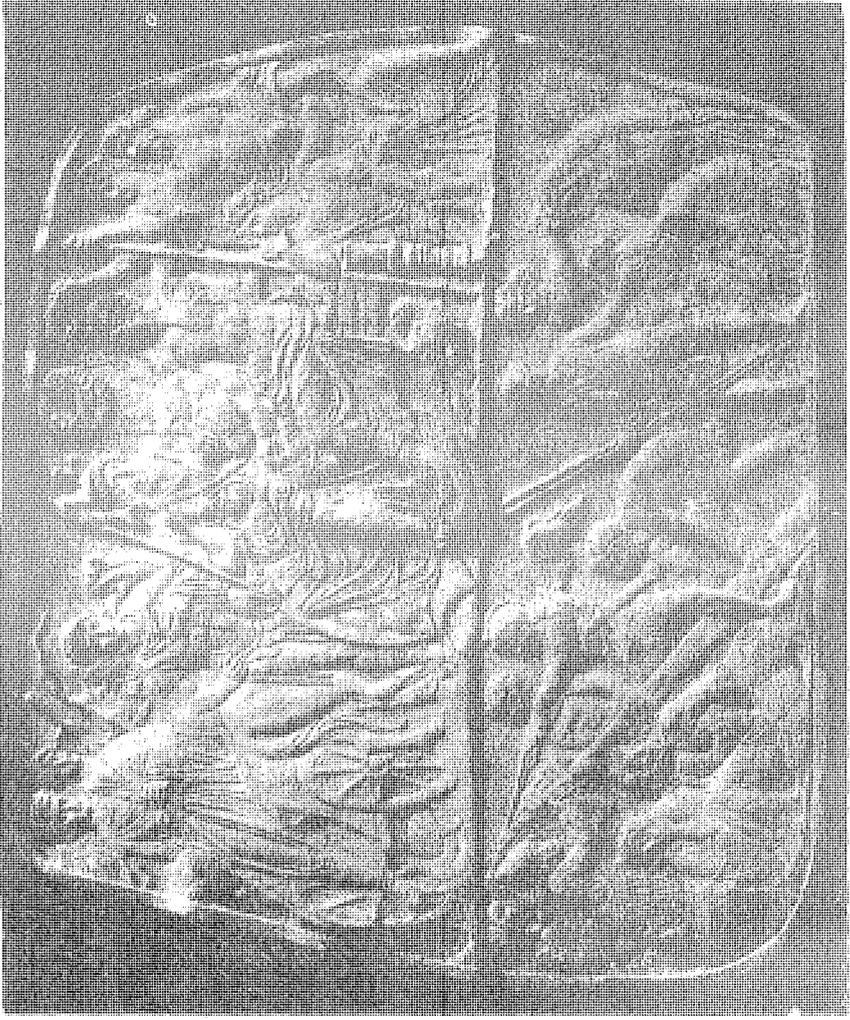
نظام البلديات وحياتها

لم تكن الحياة الخاصة والعامة ، حياة الأفراد وحياة الجماعات ، أحد وأقوى مما كانت في إيطاليا القديمة ؛ غير أن حوادث هذه الأيام تبلغ من الخطر ومن استفاد الجهود حداً لا نستطيع معه أن نولى تفاصيل نظام البلديات في عهد القيصرية كثيراً من عنايتنا ، ومن أجل هذا لم تعد نظم الحكم المختلفة المميزة أو الحقوق السياسية المتتابعة التي كان الأهليون يعضون عليها بالتواجد ، لم تعد هذه أو تلك جزءاً من ذلك الماضي الحى الذى هو موضوع بحثنا ومثار اهتمامنا .

لقد كان من الخصائص الأساسية للإمبراطورية الرومانية أنها تتألف من مجموعة من دول - المدن تحكم نفسها بنفسها إلى حد ما ، وتضم كل منها في موخرتها أرضين واسعة تمتلكها وتسيطر عليها ، مع أن الإمبراطورية كلها كانت مقسمة إلى ولايات . وكان معنى الوطنية في هذه الإمبراطورية حب الشخص لمدينته أكثر مما تعنى حبه للإمبراطورية . وكان الأحرار في كل مدينة يقنعون في الأحوال العادية بممارسة حقوقهم السياسية المحلية البحتة ؛ وقلما كان الذين نالوا حقوق المواطنة الرومانية من غير أهل رومة يذهبون إلى تلك العاصمة ليعطوا أصواتهم في الانتخابات ؛ ولم يكن اضمحلال الجمعيات العامة في العاصمة مصحوباً باضمحلال مائل له في مدن الإمبراطورية كما تدل على هذا بمجي نفسها . وكان لمعظم البلديات الإيطالية مجالس شيوخ Curia - ولعظم المدن الشرقية مجالس boulé تشريعية - تسن قوانينها وجمعيات comitia · ekklesia تختارحكامها ؛ وكان ينتظر من حاكم المدينة أن يهب مدينته مبلغاً كبيراً من المال Summa honoraria (والكلمة الثانية مشتقة من honas بمعنى المنصب) نظير تفضلها

علمه بأن يكون حاكماً لها ، وقد جرت العادة أيضاً أن يتبرع من حين لآخر
حين يبعث المال للأغراض أو الألعاب العامة . وإذا كان النصب لا يتأثر
عليه صاحبه أجراً فإن ديمقراطية الأحرار - أو أرسقراطية الأحرار - قد
استحوطت في كل مكان تقريباً بالحركة يتولاها ذور المال والجاه .

وظلت البلديات مائتي عام من عهد أغسطس إلى عهد أورليوس في رخله
بوازدهار . ولسنا ننكر أن الكثرة الغالبة من أهلها كانت من الفقراء بطبيعة
الحال ، فقد تكتلت الطبيعة والميزات المختلفة بإيجاد هذه الحال ؛ ولكن
التاريخ لم يحدنا قط عن عهد من العهود ، قبل هذا العهد أو بعده ، فعل
فيه الأغنياء للفقراء قدر ما فعله أغنياء هذه المدائن لفقرائها : ذلك أن نفقات
إدارة المدينة كلها تقريباً ، وما يلزم من المال لتمثيل المسرحيات ، وغير ذلك
من ضروب التسلية ، والألعاب ، وتشيد الهياكل ؛ ودور التمثيل ، والملاعب ،
ومدارس التدريب الرياضي ، والمكتبات العامة ، والباسقات ، والقنوات
التي تنقل ماء الشرب للمدن ، والقناطر والحمامات ، وتجميل هذه كلها
بالأقواس والأروقة ذات العمدة ، والصور ، والتماثيل ، كانت كلها يتحملها
ذور اليسار . وقد ظل الوطن طوال المائتي عام الأولى من عهد الإمبراطورية
يدفع أولئك الأقوام إلى التنافس فيما بينهم للقيام بهذه الأعمال الخيرية تنافساً
أدى في بعض الأحيان إلى إفلاس عدة من الأسر التي كانت تمولها ، أو المدن
التي تتكفل بها بعد إقامتها من مال الأغنياء . وقد جرت العادة في أيام القسط
أن يبتاع الأغنياء الطعام ويوزعوه من غير ثمن على الفقراء ، وكانوا
في بعض المناسبات يقدمون لجميع المواطنين ، ولجميع السكان أحياناً ، زيتاً
أو خيراً بالخبان ، أو يقيمون لهم وليمة عامة ، أو يهبونهم قدراً من المال .
وخلدت النقوش الباقية إلى الآن كثيراً من هذا السخاء . فهاهو ذا متر من
أصحاب الملايين يهب مدينة ألينم في فينشيا ١٠٠٠٠٠٠ ١٦٠٠٠ سترس لإقامة
حمامات عامة ، وها هي ذى سيدة تشيد هيكلًا ومدرجًا في كسينم Casinum ؛



(شكل - ٢) جومرة أغسطس (متحف فيينا)

للفقراء بضمن نجس . وكانت الحمامات في معظم الأحوال مباحة من غير أجر ينفق عليها من هبات المحسنين ، والمال يقدم للأسر الفقيرة مساعدة لها على تربية الأبناء والإكثار منهم ؛ وكانت المدارس ودور الكتب تنشأ للتعليم والمطالعة ، والمسرحيات تمثل ، والحفلات الموسيقية تقام ، والألعاب تنظم لتنافس بها تلك المدن رومة غير عابثة بما تنفقه فيها من مال . ولم تكن حضارة المدن الإيطالية حضارة مادية بالقدر الذي كانت عليه في العاصمة ؛ فقد كانت هذه المدائن تتنافس في إقامة المدرجات ، ولكنها أقامت كذلك هياكل فخمة ، يضارع بعضها أحسن ما كان منها في رومة (٢٤) ، وجعلت شهورها مرحلة بما كانت تقيمه من أعياد دينية ذات بهجة . وكانت تنفق بسخاء على الأعمال الفنية ، وتنشئ القاعات الرحبة للمحاضرات ، وللشعراء ، والسوفسطائيين ، والخطباء ، والفلاسفة ، والموسيقيين . وكانت يسر لمواطنيها أسباب الصحة ، والنظافة ، والتنزه ، والحياة الثقافية القوية . و منها ، لا من رومة ، خرج عطاء المؤلفين اللاتين ، وعدد كبير من أحسن ما في متاحفنا من روائع النحت كتمثال نيكي (العدالة) في متحف نابلي ، وتمثال بروس (الحب) في سنتومسلا Centumecella ، وتمثال زيوس في أتركولي Atricoli . وكانت تقوم بحاجيات عدد من السكان ، لا يقلون عن عددهم قبل هذا القرن ، في المدن التي قامت مكانها وتوأمهم من مصائب الحرب تأميناً منقطع النظير .

وقصارى القول أن القرنين الأول والثاني من التاريخ الميلادى قد شهدا ذروة مجد شبه الجزيرة العظيمة .